المحـــــاضرة الأولـــى:

ضرورة الانتقال من المشافهة إلى الكتابة

1- بين المشافهة والكتابة:

بدأت العلاقة بين **المشافهة والكتابة** تتحدّد بشكل بارز بعد ظهور الكتابة، فقد نشأت اللّغة في فلك شفاهي سابق لعهد الكتابة، وحسب **فرديناند دي سوسير(Ferdinand de Saussure)** فالكتابة "فعل تالٍ للشفاهي، فهما فعلان مترابطان ومتلازمان، إنّ التعبير الشفاهي يمكن أن يوجد، بل وُجد في معظم الأحيان دون أي كتابة على الإطلاق، أمّا الكتابة فلم توجد قط دون شفاهية"، وبانتقال الأدب الشفاهي وتحوّله إلى أدب مكتوب نجده يفقد العديد من سماته الجمالية، كالعناصر الخارج نصيّة والتي لا يمكن أن تتجسّد كتابة فهي تلعب دورا لا يُستهان به في عملية الإفهام وتذوّق النّص الأدبي؛ **كنبرة الصوت** ومختلف **الإيماءات** المصاحبة للأداء.

بينما نجد **النّص المكتوب** شيئا قائما بذاته مستقلا عن المؤلف، يتميّز بالقدرة على التأني، إذ يتمكن الكاتب من تعديل محتواه أو إزاحته ومسحه، أمّا الأداء الشفاهي فهو وليد اللّحظة والإرتجال، إذ لا يمنح فرصة للتروي والتنقيح، ما يؤدي بالضرورة إلى ظاهرة التكرار التي من شأنها أن تُبقي المتلقي متتبعاً للأداء دون شرود أو انقطاع.

إنّ الاقرار بظهور الكتابة ليس محاولة لمحو الشفاهي باعتباره سريع الزوال نظرا لارتباطه بالزّمن والذّاكرة الإنسانية المتميّزة في نظر البعض وبسرعة النسيان، بل هي محاولة لإعطائه سندا ودعما يسهم في تثبيته ودوامه، فالكتابة ثقافة مرئية مرتبطة أساسا بالمكان، مقيّدة بالأوراق، ولا يمكن في أيّ حال من الأحوال إتّهام الشفاهية بافتقارها إلى ما يضمن بقاءها واستمرارها، فهي تتميّز باستراتجية تضمن استمرارية المعرفة حيث تضعها "في سياق الصّراع بابقائها في عالم الحياة الإنسانية" على عكس الثقافة الكتابية التي تعتمد في ذلك على عملية التدوين وحصر المعرفة بين دفف الكتب.

إذا كان الأدب المكتوب يحفظ بالتدوين، فللذّاكرة دورها الفعّال في حفظ الأدب الشفهيّ وترويجه، إذ تلجأ المجتمعات الشفاهية إلى صياغة آدابها ومعارفها بطريقة تسهّل عمليّة التذكر مستغلة في ذلك أساليب وتقنيات عديدة كالتكرار والسجع والطباق والمقابلة، كما تتميّز النصوص الشفاهية بالايقاع الذي يعمل على تحفيز الذاكرة لتسهيل عملية الاستذكار فالذاكرة الشفاهية تبحث في فكرها عن قوالب جاهزة تحاول وضعها من أجل تسهيل عملية التذكّر.

يرى الباحث محمد مبارك أنّ " **الشفوية** لا تعني نفي **الكتابة** ضرورة أو هي نقيضها الحتمي، فقد يكتب النّص الشعري كتابة ويدوّن تدوينا ثم لا يخرج عن إطار الشفوية" لهذا لا يمكن اعتبار كل نص مكتوب ضمن الكتابي بمجرد انّه على ورق.

يختلف النّص الأدبي المكتوب عن النّص الأدبي الشفاهي من خلال الموقف الإيصالي لدى كلّ منهما، والذي يمكن تمثيله كالآتي:

الموقف الايصالي	مرسِل	رسالة	مرسَل إليه
الخطاب الشفاهي قائم على السماع	ملقي النّص سواء كان صاحب النّص أم لا	النّص مسموع يحتل مساحة زمانية	جمهور حاضر
الخطاب الكتابي قائم على القراءة	الكاتب	النّص مكتوب ويحتل مساحة مكانية	مجهول غائب

فالخطاب الشفاهي قائم على **السماع**، تحكمه علاقة متيمة بين **المؤدي والمتلقي** (الجمهور)، يكتسب جماليته من **التفاعل** الحاصل بين طرفي الخطاب، أمّا **الخطاب الكتابي** فمستقل عن السياق الأدائي الحي.

2. مفـــــهوم الكتابة:

أ. الكتابة لغة :

نقول : كَتَبَ، يكْتُبُ، كِتَابَةً وهو **مكتُوبُ، فالكتابة** تعني الجمع والشد والتنظيم، كما تعني الاتفاق على الحرية، فالرجل يكاتب عبده على مال يؤديه إليه منجما، أي يتفق معه على حريته مقابل مبالغ من المال "قال ابن الأثير : الكتابة أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه منجما، فإذا أداه صار حرا، قال : وسميت **كتابة** بمصدر **كَتَبَ** لأنه **يَكْتُبُ** على نفسه لمولاه ثمنه، ويكتب مولاه له عليه العتق، وقد كاتبه مكاتبة والعبد مكاتب". كما تعني الكتابة الحرفة حيث ذكر ابن منظور من قول الأزهري : **"والكتابة لمن تكون له صناعة مثل الصياغة والخياطة"**، وقد ورد مصطلح الكتابة في معجم مصطلحات علم اللغة الحديث على وجهين متقاربين من المعاني، فنجده مقابلا لمعنى **الخط والتمثيل الخطي Script** مرة، كما يأتي مقابلا لمصطلح **writing** الذي بمعنى الإبداع الفني بواسطة اللغة المكتوبة مرة أخرى.

والملاحظ أن هذه المقابلة في معنيي كلمة **كتابة** هي نفسها ما ذهب إليه الجرجاني في التعريفات حين قال : "الكتاب يقال في عرف الأدباء لإنشاء النثر كما أن النثر يقال لإنشاء النظم والظاهر أنه المراد ها هنا لا ln الخط." وهو يقصد هنا مصطلح **الكتابة** لا **الكتاب** لأنه

قدم تعريفه هذا عن فرعه الذي ألحقه بهذا النص حيث قال : "الكتابة اعتاق المملوك يدا حالا ورقبة مالا حتى لا يكون للمولى سبيل على اكتسابه" وأصلها في اللغة العربية من مادة الفعل **(كَتَبَ)** الذي بمعنى خط، والاسم منه كتاب و"**(كتبه)** يكتب **(كَتْبًا)** ...وكذا كِتَابَة وكِتْبَة بالكسر فيهما : خَطَّه، قال أبو النجم : تَخُطُّ رجلاي بخط مختلف تكتبان في الطريق لام الف و"(كتباً) بالفتح المصدر المقيس، وكِتابًا بالكسر على خلاف القياس، وقيل هو اسم كاللباس وجاء في موضع غيره : "و**الاكتاب** تعليم **الكتاب** و**الكتابة**" ومنه **فالكتابة** فن وعلم يتعلم لذلك قالوا : **والمكتب المعلم**، وقال اللحياني هو **المكتب** الذي يعلم الكتابة"، ولا عجب أن دعوا الكاتب بالعالم حيث قالوا : "ورجل **كاتب**، والجمع **كتاب وكتبة**، حرفته **الكتابة والكتاب**: **الكتبة**. ابن الأعرابي : **الكاتب** عندهم العالم، قال الله تعالى : أم عندهم الغيب فهم **يكتبون** وفي كتابه إلى أهل اليمن : قد بعثت إليكم كاتبا من أصحابي، أراد عالما، سمي به لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة، أن عنده العلم والمعرفة، وكان الكاتب عندهم عزيزا وفيهم قليلا". والمعنى أن **الكتابة** فيها معنى العلم والابتكار. والملاحظ أن الكاتب في التراث العربي أخذ مكانة عالية احتلها الشاعر حتى وقت قريب لما كانت المشافهة هي الوسيلة الوحيدة التي تترجم حياة العرب و تحفظ ثقافتهم.

ب. **الكتابة اصطلاحا :** يعرف معجم علوم التربية الكتابة Ecrit بأنها: **"نتاج فعل الكتابة الذي عملية إنتاج نص-خطاب باعتباره سلسلة من الجمل تحكمه بنية جملية structure phrastique وروابط بين هذه الجمل ينسق بينها بنية بين جملية structure inter phrastique تتحكم فيها قواعد النحو"** وهنا يركز هذا التعريف على الطبيعة البنائية للكتابة كفعل له نواتج محددة في مصطلحين اثنين هما: **النص والخطاب** ومن هنا **فالكتابة** تتجاوز حد اللفظ المفرد والجملة المنعزلة، إلى **خطاب نص** له مميزات تحددها العلوم التي تشتغل على هذين المجالين اللسانيين.

ومن جهة ثانية ينظر علماء **التربية والديداكتيك** إلى الكتابة نظرة مغايرة فهي عندهم **امتحان وإنشاء وتركيب و"إجراء للتقويم في صيغة فرض أو تمرين يهدف إلى تقدير أداءات التلاميذ قصد ترتيبهم"**، وهنا نجد هذا التعريف يركز على الكتابة المدرسية تحديدا فهو **أداة تقييمية** الغرض منها **منح الدرجات وترتيب المتعلمين** ليس إلاّ. وقد أضاف مؤلفوا معجم علوم التربية تعريفا يتدارك النقص المحتمل في التعريف السابق، ومبيّنين الوظيفة التقويمية للكتابة فهي حسبهم : **"نشاط تعليمي وتقويمي يوظف في تعليم اللغات في صيغ أسئلة مقالية تتطلب من المتعلم إنشاء نص حول موضوع معين"**. والملاحظ أن هذا التعريف أصبغ على الكتابة وظيفة التقييم المضمّنة في التقويم، وتعمد التأكيد على وظيفتي **التعليم والتقويم**؛ أي **التكوين والتصويب وإعطاء القيمة والترتيب** في الدرجات التعليمية. والحقيقة أن هذا التعريف يرصد بدقة مفهوم **الكتابة المدرسية**، فليس للكتابة وظيفة واحدة كما يبدو، بل هي نشاط متعدد الوظائف؛ **تعلمي وتقييمي وتقويمي** في الوقت نفسه فبواسطته

تنشأ التعلمات وتلقن المعارف، وترسخ السلوكات اللغوية الصحيحة وتقوم الأخطاء وتحارب العادات اللغوية غير السليمة، وفي آخر المطاف تقيم المرحلة التعلمية برمّتها وتقدر نجاحات المتعلم في اكتساب المهارات وحصول الكفايات المستهدفة، ومن ثم يقع ترتيب المتعلم بين أقرانه في نهاية مرحلة تعلمية.

وتعد **"الكتابة** حسب روبير اسكاربيت R .Escarpit **التقاء للغة المنطوقة باللغة المكتوبة، التقاء الصوت بالخط"** إلاّ أن الكتابة ليست مجرد ترميز آلي للغة المنطوقة وإنما هي اللغة في حد ذاتها متخذة شكلا وصورة محتلة فضاء ومكانا على مساحة من الورق أو الخشب أو الحجر أو غير ذلك، والغرض من كل ذلك تحقيق ما تسعى إليه اللغة ألا وهو التواصل وهذا ما جعل الباحثين قديما يذهبون مذاهب شتى في تناول الكتابة بحسب النظر فيها، فمنهم من تناولها من حيث هي **ظاهرة أدبية** كما هو الحال في كتاب الصناعتين : **الكتابة والشعر** لأبي هلال العسكري. والحق أن كتاب الصناعتين ليس كتابا في تعليم الكتابة بالتحديد؛ ولكنه يعمل على هدف أشمل كما ذكر المؤلف في مقدمة الكتاب، ألا وهو "تقديم ما يحتاج إليه في صنعة الكلام : **نثره ونظمه"** فإذا علمنا أن "أجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل والخطب والشعر" كما أوضح مؤلف الكتاب أدركنا أن الكتاب قد سعى إلى تقديم كل ما يمكن أن يحتاج إليه **لحسن التعبير** سواء كان هذا التعبير شعرا أو نثرا.

في الوقت الذي تناول فيه ابن الأثير على سبيل المثال موضوع **الكتابة** بوصفها **صناعة أو وظيفة** وذلك في مؤلفه كتاب المفتاح المنشا لحديقة الإنشا، ويأتي هذا الكتاب ممثلا لعدد لاحصر له من الكتب التي سعت كلها إلى "التعريف **بمهنة الكتابة** وأصولها وديوان الإنشاء وفضل كتابة الإنشاء وصفات الكتاب وآدابهم، ومعرفة ما يحتاجون إليه من الأمور العملية والعلمية كأنواع المكاتبات وتقويم البلدان، وتقويم اليد واللسان وأنواع الخطوط والدواة والمسند والأحبار والقلم والأوراق والسكين وقوانين الكتابة ونظمها، وكيفية المخاطبة والعناوين وكيفية وضعها وبراعة الاستهلال وحسن التخلص، والآداب التي يجب أن يكون عليها كاتب الإنشاء والصفات الخلقية والخلقية التي يجب أن يتحلى بها".

وهناك من الدارسين القدامى من رأى في **الكتابة ظاهرة اجتماعية** باعتبارها قدرة على **التعبير**، سواء **بالقول** أو **الكتابة**. وخير من مثّل هذا الاتجاه عبد الرحمن بن خلدون في المقدمة وهو بصدد إبداء تأملاته للملكة اللسانية.

3. نشأة الكتابة وتطورها عند العرب :

لا شك أن للكتابة والكتاب فضلا أي فضل، فقد ورد في أكثر من موضع من كتب الأدباء والعلماء ذكر تلك المكانة التي تبوأها الكتاب في أقوامهم، فهذا عبد الباسط الأنسي في كتابه

أبدع الأساليب في إنشاء الرسائل والمكاتيب ينقل أشهر ما قيل في ذلك حيث يقول : فمن أحسن ما مدح به كاتب قول ابن المعتز :

إذا أخذ القرطاس خلت يمينه تفتح نورا أو تنظم جواهرا.

وقال آخر:

يؤلف اللؤلؤ المنثور منطقه وينظم الدر بالأقلام في الكتب

ويرتبط النظر في **الكتابة،** كأداة **لغوية،** بالنظر في **اللغة** عموما، ومن توغل الدراسات اللغوية في التاريخ الإنساني تستمد الكتابة أصالتها ورسوخها في الحياة الإنسانية؛ حيث "إن النظر في اللغة قديم جدا قد يرجع إلى وقت أن أخذت الجماعات البشرية في الكلام ثم دق نسبيا بعد نشأة **الكتابة"** وهكذا يرى الدكتور محمود السعران مسألة نشوء الدراسات اللغوية قديما، وهو على ما يبدو محق في ذلك، فلا أحد له أن يجزم بالحد الزمني الدقيق الذي بدأ فيه الإنسان يفكر في هذه الأداة الخلاقة التي تضمن اتصاله بغيره، بيد أن **"الكتابة إذا قورنت بالاختراعات الإنسانية الأخرى تعتبر حديثة عهد بالوجود، حقيقة إنها تبدو لنا قديمة جدا، ولكن ذلك مرجعه إلى أن التاريخ لم يصل إلينا إلا عن طريقها، ومن ثم لا يمكن أن يكون هناك تاريخ أقدم من الكتابة"** وفي السياق ذاته نجد الدكتور محمود السعران يشير إلى حقيقة قد تغيب عن كثير من الناس ألا وهي ارتباط التفكير العلمي، موضوعات ومناهج واصطلاحات، بنشوء **الخط والكتابة؛** فما من علم إلا وكان تطوره بعد نشوئه مقترنا بالكتابة والتدوين. وقد اتخذت الكتابة موقعا هاما في الحياة الإنسانية، فعني البحاثة بأصلها وتعددت آراؤهم في نشأتها.

وقد كان العرب من بين أكثر الناس اهتماما بنظام الكتابة العربية، حيث ذهبوا مذاهب شتى في تأصيل نشأتها وانحصرت مذاهبهم في المجمل، في ثلاثة آراء :

أ. فمنهم من نسبها إلى **آدم،** ومنهم من عزاها إلى نبي الله **إدريس،** ومنهم من وصل أصلها **بإسماعيل أو هود** عليهم جميعا صلوات الله وسلامه، وقد ذكر ابن النديم في الفهرست ما وصله من أخبار في ذلك فقال : " وقال كعب، وأنا أبرى من قوله، إن أول من وضع الكتابة العربية والفارسية وغيرها من الكتابات، آدم عليه السلام، وضع ذلك قبل موته بثلاثمائة سنة (وكتبه) في الطين وطبخه، فلما أصاب الأرض الطوفان، سلم فوجد كل قوم كتابتهم فكتبوا بها".

ب. منهم من رأى أن **الكتابة اختراع عربي** نسب إلى ملوك مدين أو أولاد النبي إسماعيل أو نفر من أهل الأنبار، ومما حكى عمرو بن شبه "أن أول من وضع الخط العربي، أبجد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت، وهم قوم من الجبلة الآخرة، وكانوا نزولا مع عدنان بن

أدد، وهم من طسم وجديس"، وهي أخبار وإن لم تعضدها حجة بيئة فإنها دليل على اعتناء العرب بأصل مدوناتهم الكتابية وتاريخ وضعهم للعلامات الكتابية وبدايات التدوين.

ج. أمّا الرأي الثالث: فيرى أن **الكتابة العربية** - في المصادر العربية مشتقة من كتابات أخرى أقدم منها، وملخصها أنها اشتقت من **المسند** وهو قلم الكتابة العربية الجنوبية، أو أنها متطورة عنه، ونتج من ذلك قلم الجزم الذي نسب للحيرة؛ في حين اعتمدت أغلب المراجع الحديثة نظرية الأصل النبطي للكتابة العربية، وهو الرأي الذي أجمع عليه العلماء والمستشرقون.

4. قيمة الكتابة والكتاب في الحياة الاجتماعية:

أولى الإسلام عناية كبرى **بالقراءة والكتابة** لأنهما أمر قرآني، ولشدة الحاجة إليها في تدوين القرآن الكريم والسنة النبوية؛ فقد جاء في التنزيل : **"اقْرَأْ باسْمِ رَبِكَ الذِّي خَلَق، خَلَق الإنْسَانَ مِنْ عَلَقْ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الذي علم بالقلم"** (سورة العلق، الآيات من 01 إلى 05). استخدم في زمن النبوة والخلفاء خط جاف، أغلب زواياه حادة، عرف فيما بعد بالخط الكوفي. أما الخط اللين المستدير فقد ظهر في بداية حكم الأمويين، وذاعت أهميته وبرز ببروزه النساخ والوراقون، كأصحاب حرفة جديدة لها مكانة وأهمية اجتماعية. وتفرعت عن الكوفي خطوط جديدة منها قلم الجليل والطومار، إذ سميت الخطوط في هذه المرحلة بأسماء أقلام الكتابة. ثم بدأت مرحلة تجويد الكتابة مع العهد العباسي على يد أعلام للخط العربي كان لهم تلاميذ أتموا ما ابتدأه شيوخهم. فاستحدثوا من قلم الطومار قلمي الثلثين والثلث، قياسا على عرض الطومار، ثم قلم النصف الذي عرف فيما بعد بالتوقيع. وتفرعت عن تلك الأقلام أقلام مثل قلم السجلات وقلم الزنبور وقلم المرصع وقلم النساخ والرقاع وخفيف النصف وخفيف الثلث. ويعتبر ظهور ابن مقلة نقلة نوعية ونقطة البداية لمرحلة جديدة في تاريخ الخط العربي، حيث أوجد للكتابة طريقة قررت معايير للخط يضبط بها. وضع ابن مقلة النسب الخاصة لكل خط, فعرض القلم ذو علاقة بنسب الحروف، وأبعادها تنطلق من دائرة قطرها الألف. ووضع لصحة أشكال الحروف شروط التوفية والتمام والاكمال والاشباع، إلى غير ذلك. ولصحة أوضاع الحروف، يشترط ابن مقلة : **الترصيف، والتأليف، والتنصيل، والتسطير**،و تستمر سلسلة الخطاطين بعد ابن مقلة. ويبرز ابن البواب الذي جمع خطوط ابن مقلة في النسخ والثلث فجودها وهذبها، وأصلح خط المحقق، وأبدع في الرقاع والريحان. استمر تطور الخط العربي على أيدي خطاطين من دول عدة : **المغرب والأندلس والفرس والمماليك والعثمانيين**. إلا انه إن كان لهم فضل في تطوير الخط من الناحية الجمالية فإنهم في جانب التقعيد ساروا على مبادئ ابن مقلة إلى يومنا هذا.

5.التعبير وكفاءة الكتابة:

يعد **التعبير** بنوعيه – **شفاهي، كتابي**- وسيلة لتحقيق أهداف تواصلية بالدرجة الأولى، وهو **مهارة مكتسبة (كفاءة)** بالممارسة والكدّ "**فالمهارات** بأنواعها تُكتسب بعد **الممارسة والتحصيل،** لأنّه لا **مهارة** دون **عمل** أو **أداء،** سواء أكان هذا الأداء نظريًّا **كالقراءة** أم **عمليًّا كالتدريب، والمهارة اللّغويّة** تدخل ضمن هذه المهارات المختلفة، وترتبط بها وجوبًا **المهارة العقليّة،** لأنّ المهارات اللّغويّة بأنواعها تتطلّب استخدام العقل، فإذا قلنا أنّ اللّغة عمليّة إرسال واستقبال، فإنّ الإرسال يتضمّن **الكلام أو الكتابة** وكلاهما يحتاج إلى تفكير فيما يقال وفيما يراد كتابته، كذلك الاستقبال الذي يتكون من الاستماع والرؤية والقراءة، وكلٌّ منها يتدخّل العقل في ترتيب مكوّناتها، لذا يجب ألاّ نفرّق مطلقًا بين **المهارة العقليّة والمهارة اللّغويّة** لأنّه من التعبير عن مكنونات العقل باللّغة"، فالتعبير إذا ممارسة تهدف إلى اكتساب اللّغة.

عندما نقول **أنّ <u>التعبير الكتابي كفاءة</u>** فذلك يعني أننا بحاجة إلى مجموعة من المعارف والمفاهيم للتمكن من الكتابة، والشيء الذي يصنع الفارق بين كاتب وآخر هي كل هذه المكتسبات القبلية وكذا درجة الممارسة (الدربة) على التعبير، فكلّما درّب وعوّد نفسه على التعبير الكتابي أصبح كاتبا متمرسا، والملاحظ انّ هناك علاقة وطيدة بين **الكفاءة والتعلّم** فكلّما كان الشخص عالما بعلوم **البلاغة والنحو والصرف** كلّما استطاع أن يكتب بطريقة متقنة، وكلما أبحر في العلوم الأخرى امتلك ذخيرة تخولّه من خوض غمار التخييل فيصبح بذلك كاتبا مقتدرا.